إجراءات إسرائيل لضمان الاستسلام

الدكتور عبد الستار قاسم
15/ذو القعدة/1422
sattarkassem@hotmail.com

ناقشت في مقال سابق منطلقات إسرائيل لإنجاز سلام حسب تعريفها مع العرب وأوضحت في نهايته أنها تعمل حقيقة على إركاع العرب واستسلامهم وليس على تبادلية يمكن أن ينقذ العرب من خلالها بعض ماء وجوههم. وقلت أن المسألة تتطلب بطلا استسلاميا عربيا وشككت في إمكانية نجاحه. ولهذا أضفت بأن إسرائيل تعمل على اتباع سياسات قد تؤدي في النهاية إلى غاياتها المطلوبة وذلك بدعم من الولايات المتحدة. أحصر النقاش هنا في الأرض المحتلة/67.

أناقش في هذا المقال الخطوات التي تتخذها إسرائيل وما تسانده به أمريكا من أجل إقامة سلام تحصل فيه إسرائيل على ما تريد ويحصل العرب على بعض المال يرضون فيه شهواتهم. يمكن تلخيص هذه الخطوات بما يلي:

أولا: إنشاء حلقات من المثقفين والمفكرين والأدباء المستعدين للتعاطي مع المشروع الإسرائيلي من خلال الولايات المتحدة وتحقيق استقرار يقوم على القبول التام بإسرائيل كجزء لا يتجزأ من المنطقة لها الحق في العيش بسلام وأمان وإقامة علاقات طبيعية مع دول الجوار وشعوب المنطقة. بدأ العمل نحو هذه الغاية منذ السبعينات واستطاعت الولايات المتحدة لأن تستقطب بعض المثقفين خاصة من أساتذة الجامعات وحملة الشهادات العلمية العليا في حقول الاقتصاد والسياسة والاجتماع والفلسفة من خلال الندوات والدورات والمنح البحثية والمؤتمرات العلمية. ثم انتقل الاستقطاب خطوة نحو تمويل أبحاث علمية خاصة بالأراضي المحتلة/67 وبالفلسطينيين تحت الاحتلال منذ عام 1948. لكن الأمور تطورت إلى درجة تمويل مراكز مختلفة تعني بنشاطات مختلفة وبالتعاون مع الأوروبيين.

في الأرض المحتلة الآن مراكز كثيرة ممولة غربيا وتعني بشؤون الديمقراطية وحقوق الإنسان والمرأة والسلام والإعلام. إنها تقدم خدمات عامة بسيطة للشعب الفلسطيني لكنها تقدم الخدمات الأكبر للسياسة الأمريكية وإسرائيل. كيف؟ ألخص فيما يلي:

أ- الترويج للقيم السياسية والاجتماعية الغربية بخاصة قيم الفردية والتحررية ووضع الفكر الغربي فوق كل فكر.

ب- التقليل من أهمية القيم العربية الإسلامية أو تجاوزها على اعتبار أنها رمز التخلف.

ت- التأكيد على أن الهمّ الأكبر للناس هو الوضع الاقتصادي، وأن تحسين الظروف المادية عبارة عن القيمة العليا في العالم الآن وأن الصراعات اقتصادية فقط. أي أن الهموم خاصة وليست عامة وعلى كل فرد أو مجموعة أو دولة أن تهتم بالقضايا الاقتصادية فقط. المهم أكل الخبز والبحث عن اللذة.

ث- العزوف عن مناقشة قضايا العزة والكرامة والشموخ القومي على اعتبار أنها أصبحت قيما بالية لا قيمة لها ولا يتمسك بها إلا المتشنجون. يؤدي التمسك بهذه القضايا إلى ظهور المشاحنات والمنافسات القاتلة والصراعات.

ج- التاريخ شيء من الماضي ويجب تجاوزه. نحن أبناء اليوم وعلينا التركيز على حل مشاكلنا القائمة دون أي عمق تاريخي. علينا التركيز على حل المشاكل بأسلوب عملي ينفصل عن التأثيرات العاطفية والانتمائية.

ح- التطبيع مع اليهود على اعتبار أنهم بشر مثلنا، واعتبار إسرائيل دولة يمكن التفاهم معها. ولهذا يعملون على الالتقاء مع الصهاينة في نشاطات علمية واجتماعية وثقافية وسياسية، ويرتبون لقاءات مع آخرين خارج دوائرهم وذلك لتوسيع دائرة المطبعين.

خ- السخرية من الثوابت الفلسطينية بخاصة عودة اللاجئين على اعتبار أنها درب من دروب الخيال ولا تمت للواقعية بصلة.

د- الترويج لهيمنة الولايات المتحدة وعدم إمكانية القفز عن إرادتها أو اتباع سياسة مستقلة عنها.

وحتى يكون بمقدور هؤلاء المثقفين القيام بالدور المطلوب فإن الأموال متوفرة لديهم ويحظون بدعم مالي أمريكي وأوروبي كبير. رواتبهم عالية جدا، ويحصلون على امتيازات مالية إضافية علاوة على الراتب. وهم كثيرو السفر والتجوال والمواظبة على حضور ورش العمل والمؤتمرات العلمية المختلفة. لا شك أن بعض ما يقومون به من نشاطات يعود بفائدة على الشعب الفلسطيني مثل تفهم الوضع التاريخي غير المريح للمرأة وفتح الطرق الزراعية وتعلم احترام آراء الآخرين، لكن الهدف يبقى أبعد من هذه النشاطات وهو تحويل انتباه الشعب الفلسطيني عن القضايا الملحة والحيوية إلى قضايا مجتمعات مستقرة لا تعاني من مأساة الاحتلال والتشريد.

انتشرت هذه المراكز بصورة كبيرة وواسعة وأصبح لديها عدد كبيرمن الموظفين، فضلا عن أعداد أخرى تتطلع نحو الحصول على عمل لديها بسبب رواتبها العالية. ومن الملاحظ أن هذه المراكز لا تؤمن تماما بالديمقراطية وحقوق الإنسان من حيث أن التوظيف فيها يقوم على أبعاد شخصية أكثر منها مهنية، وهناك استغلال مادي للعاملين. فمثلا، تجد فتاة ترتدي غطاء رأس صعوبة في الحصول على عمل، ويتم الانتقاص من أجر العاملين.

ثانيا: ربط الفلسطينيين اقتصاديا بعجلة الاقتصاد الإسرائيلي وذلك لكبح محاولات الثورة أو المقاومة المتواصلة. فتحت إسرائيل أبواب العمل في مصانعها ومزارعها وضيقت النشاط الاقتصادي في الأرض المحتلة/67 بهدف تقنية العمل. وقد ازداد عدد العمال الفلسطينيين في إسرائيل حتى تجاوز المائة والعشرين ألفا. يعني هذا أن قرابة سبعمائة وخمسين ألف نسمة أخذت تعتمد على العمل في إسرائيل لجني لقمة الخبز. هذا فضلا عن أن الكثير من النشاط الاقتصادي العام للفلسطينيين أخذ يربط بإسرائيل وبالأخص النشاط التجاري. لم يكن بمقدور التجار والصناع أن يشقوا طريقهم بدون التعامل التجاري مع إسرائيل، وحتى أن الفلاحين لم يكن بمقدورهم تحقيق أرباح جيدة بدون التسويق في إسرائيل.

اعتمدت إسرائيل عبر السنين سياسة اقتصادية تقوم على عدم التجويع وعدم الإثراء. وضعن خطا اقتصاديا أسفل عملت على عدم هبوط الدخل الفلسطيني دونه، وخطا أعلى منعت ادخل من تجاوزه. ذلك لأن التخطي إلى الأسفل قد يقود إلى ثورة الجوع، والتخطي إلى الأعلى قد يقود إلى ثورة البحث عن الذات. ولهذا أبقت الناس ضمن أرجوحة البندول دون استقرار اقتصادي وأشعرتهم بعدم الاطمئنان.

هدفت أموال الصمود التي تم تخصيصها من قبل القمة العربية إلى تصحيح بعض الوضع الاقتصادي وإشعار الناس بنوع من الطمأنينة المعيشية، إلا أن الفساد الذي مارسته منظمة التحرير والأردن في صرف الأموال حوّل المال إلى نقمة استفاد منها من لم يكونوا بحاجة إلى استفادة. وقد أدت أموال الصمود إلى تدني الثقة بالدعم الخارجي ونبهت الكثيرين أن الفساد طريق مشروع في تسيير المصالح الشخصية.

ثالثا: الإرهاب المستمر. أبقت إسرائيل الناس تحت ضغط إرهابي مستمر عبر السنوات من خلال سياساتها القمعية التي تضمنت مختلف أنواع العقاب الجماعي والفردي. مارست القتل والاعتقال والتعذيب والإقامات الجبرية وتعطيل المصالح والمنع من السفر ومنع التجول وإغلاق المحال والطرد من الوظيفة، الخ. حاولت تعزيز مشاعر الخوف لدى الفلسطينيين باستمرار وتعزيز صورتها المخيفة. ولا شك أنها استطاعت أن تكبح طموح الكثير من الناس وحولتهم إلى متفرجين يرفضون المشاركة في النشاطات العامة.

رابعا: الاختراقات الأمنية السرية والعلنية. عمدت إسرائيل إلى تجنيد عملاء لها بكثافة منهم العلنيين لكي يشكلوا رموزا اجتماعية للخيانة ومنهم السريين لكي يقفوا على تفاصيل العمل السري الفلسطيني. استعانت إسرائيل بوجهاء وأناس عاديين ليكونوا حلقات وصل بين إدارتها وبين جمهور الناس لقاء امتيازات خاصة. وقد كان لهؤلاء الأثر الكبير في التأثير سلبا على معنويات الناس بسبب صلفهم وعدم شعورهم بالتهديد. تُرك هؤلاء يهيمون ويفعلون كما يشاءون ولم يتم التعرض لهم من قبل الفصائل الفلسطينية إلا في حالات نادرة.

أما العملاء المخفيون فكان خطرهم كبيرا إلى درجة إفشال العمل المقاوم في الأرض المحتلة. لم يكن من الصعب على إسرائيل أن تتبع الخلايا العسكرية والمقاومة وتطلع بالتفصيل على مختلف نشاطاتها وأن تنقض عليها في الوقت المناسب. والوقت المناسب عادة هو قبيل التنفيذ. أنهك هذا الاختراق الراغبين في المقاومة ودحرهم إلى زوايا الإحباط والمرارة والتفكير الجاد بعدم الانخراط بأي عمل مقاوم والقبول بما تطرحه إسرائيل. وامتد هذا التأثير إلى مختلف الأوساط الشعبية التي أخذت تعظم قدرات إسرائيل الاستخبارية وتضفي عليها هالة من المنعة والأخطبوطية.

ولوحظ في ذات الوقت عدم اكتراث منظمة التحرير والفصائل عموما بهذه الظاهرة حتى شعر العملاء والجواسيس بأمن وسلام واستفحلوا. من المعروف أن هذا الاستفحال ما زال قائما وأن السلطة الفلسطينية لم تطور برنامجا للسيطرة عليه. بل على العكس، يرى كثيرون أن عددا من المشكوك بهم أمنيا يتمتعون بمواقع سلطوية. ومن المعروف أن الاتفاقات مع إسرائيل تحمي الجواسيس وتطالب السلطة بملاحقة المجاهدين والمناضلين.

خامسا: الضغط على العرب من خلال الولايات المتحدة لإبقاء مستوى الدعم العربي ضمن الدراهم وضمن التصريحات الإعلامية. قدم العرب دعما ماليا عبر السنوات لكنه في الحقيقة لم يكن مراقبا وذهب أغلبه هباء محققا إساءات للشعب الفلسطيني. لكن الأهم من ذلك هو اجترار العرب لكلام ممجوج جعل الفلسطينيين يفقدون الثقة بالأمة العربية ككل ويكفرون ليس بالحكام فقط وإنما بالشعوب أيضا. صب هذا ضمن هدف خلق شعور باليأس في الصفوف الفلسطينية مما يدفع نحو البحث عن حل فلسطيني غير عربي وغير تاريخي ضمن الرؤية الإسرائيلية، الشيء الذي تم في أوسلو.

سادسا: الفساد الذي غرقت فيه سلطة الحكم الذاتي. من المعروف أن الفساد في صفوف منظمة التحرير كان واسعا، لكن الأمريكيين والإسرائيليين حاولوا استغلاله وتطويره مع قدوم

السلطة بهدف تمزيق النسيج الاجتماعي الفلسطيني ومعه النسيجين السياسي والوطني. فتحت أمريكا وإسرائيل المجال أما الفساد الإداري ونهب الأموال بحيث اهتز الوضع الفلسطيني بصورة خطيرة جدا إلى درجة أن عبارة تفضيل الاحتلال الصهيوني على سلطة فلسطينية أخذت تُسمع في الشارع

الفساد في فلسطين ليس بريئا ولا هو ناجم عن جهل إداري أو استهتار وإنما عبارة عن سياسة ممنهجة وتهدف إلى حشد الدعم لاتفاقات أوسلو ورموزها. لم يكن من الممكن استقطاب تأييد ذي قيمة للاتفاقيات مع إسرائيل بدون إغراءات مادية مما يعني خلق الكثير من الوظائف غير الضرورية وفتح أبواب الخزائن للناهبين وتسهيل الأعمال التجارية وأعمال الرشوة والحصول على الامتيازات. ولهذا صمتت الولايات المتحدة عن سوء التصرف بأموالها وأموال الدول المانحة وعمدت إسرائيل إلى إخفاء الأرقام.

جنبا إلى جنب الفساد فتحت إسرائيل أبواب متنزهاتها وأماكن الترفيه أمام العديد من الفلسطينيين ليمارسوا ما لا يستطيعون ممارسته في الصفة الغربية وغزة. ونحن نعرف في الأرض المحتلة كيف تستخدم المخابرات الإسرائيلية هذه المواقع للإسقاط والتجنيد. وطبعا الهدف النهائي هو صنع قيادات فلسطينية تتقن معسول الكلام وتتقن الاستسلام. أي أن الإجراءات الإسرائيلية لم تكن إسرائيلية بحتة وإنما هناك أدلة كثيرة أن جهات فلسطينية متورطة في صنع الأسباب التي تبرر التنازل والقبول بالأمر الواقع.

لكن الانتفاضة أتت لتفسد الكثير من الخطط والإجراءات الإسرائيلية، ولتفسد كل الاتفاقيات مع إسرائيل. والمشهد الآن هو عبارة عن ليّ أذرع بين الإسرائيليين ومعاونيهم من جهة وبين المقاومين الفلسطينيين من جهة أخرى. وأنا أرى أن الكفة ترجح تدريجيا لصالح التاريخ والدين والحضارة والإنسان العربي.